هكذا نشأت حارة طرابلسية سنية ـــ علوية وهكذا عاش أهلها قبل قدوم سلطة الوصاية

بقلم طلال خوجة

حين أصبح أبو عزت يملك بضعة مئات من الليرات الذهبية والتي كان قد جمعها منذ نزل إلى طرابلس من ريف الضنية في أعقاب سفربرلك، ممتهناً بيع الخضار والفاكهة واللبن مال قبان، لم يكن ليضع ليراته في مصارف طرابلس الثلاثينيات، وكانت الفيحاء تمتاز بموقع خاص سواء بالنسبة للشمال السوري، او بالنسبة لشمال دولة لبنان الكبير أو حتى بالنسبة لبيروت الناهضة من كبوتها في القرن التاسع عشر لملاقاة قناصل وسفراء الأمبرطوريات الأوروبية، «فمسيتشارو» أبو عزت الإقتصاديون كانوا من المشايخ والأئمّة و«أوادم» المدينة، وقد عُرضت عليه منطقة واسعة من بساتين طرابلس تمتد من الزاهرية حتى مشارف الميناء، إلاّ أنّ هذا الفلاح الذي ترك حصته من بستان والده الريفي ونزل إلى طرابلس، فضّل أن يضع ليراته في بناية منجزة في عقبة المفتي.

لم يكن لحارة عقبة المفتي باب يحميها، ولكنها كانت تشرف على قسم كبير من المدينة، لذا سيكون لبناية أبو عزت دور في أحداث 58 حيث أعجب مطلّها «الثوّار»، كما ستتحول خطّ تماس في قسم من الحرب الأهلية اللاحقة، خصوصاً في إطار القتال السوري-الفلسطيني بأجساد الفئات الطرابلسية والفلسطينية قبل أن تحترق كليّا سنة 1983، ومن ثم تُنقل حجارتها وحجارة أبنية المنطقة (التي ستعرف لاحقا بمشروع الحريري) لتردم جزءاً من شاطئ الميناء وتطمر معه أمكنة حميمة لأهل المدينة المستلقية في الجانب القلق من المتوسط، ولتساهم في ما أصبح يُعرف بكورنيش الميناء والذي أصبح مرتادوه يعكسون قلق المدينة وقلقهم في آن بعد سنوات طويلة من الألم والأسى والحروب ومع ذلك فانك تندهش لقدرتهم على المقاومة ورغبتهم في الحياة.

ويبدو أنّ اختيار أبو عزت لهذه البناية يرتبط إلى حد ما بقربها من مساكن أهل وأنسباء زوجته الثانية من آل الجراح وقمر الدين وحموي (فارقت الأولى الحياة في سن مبكرة).

تقع عقبة المفتي في منتصف الطريق بين ساحة الأميركان في القبة وسوق الخضار في السويقة على ضفة أبو علي الشرقية قبل الطوفة وقبل أن تخترقها شوارع حداثة مزعومة، شوهت جزءاً من مدينة المماليك التي بنيت تحت قلعة ريمون دي تولوز.

لم تكن العائلات المذكورة أعلاه العائلات السنية الوحيدة في الحارة، كما أنّ الحارة ضمت عائلات علوية معروفة، بعضها ذو صلات بارزة بسوريا (كما كثير من العائلات السنية والمسيحية)، فهناك آل يونس ومنهم من عملوا وزراء و نواباً في سوريا (قبل البعث وفي بدايته) ومنهم من أسهم لاحقاً في صناعة السياحة السورية وتطوير الساحل السوري، وهناك آل عبدو الذين لعبوا دوراً كبيراً في «الحركة التصحيحية» البعثية وفي بعض الخربطة عليها لاحقاً وخصوصاً اللواء

شفيق وآل معروف، ومنهم من أصبح مديراً لمصفاة حمص، وهناك آل التيشوري وآل الزاهر وآل مرعوش وآل الدهيني وآل الخادم (وقد وصل أحدهم إلى قيادة القاعدة البحريّة في بيروت بعدما دخل البحرية كسنّي بواسطة نفوذ آل قمرالدين لدى كرامي، أما صديقه الراحل «ظريف العرب»(Abdul) ، فقد دخل كل القصور في معظم العصور والأمكنة التي عاشها وعايشها وكأنّه ابن بطوطة وليس إبن أبي عزت، وكان الظريف صديقاً للجميع ولكنه كان على مودة خاصة مع الأمير الأحمر والعندليب الأسمر وأبناء عبد الناصر).

وقد امتهن هؤلاء معظم المهن والحرف كما عملوا في التجارة، أمّا فقراء العلويين، وجزء منهم كان قد قدم من الريف الشمالي السوري، فقد سكنوا ما كان يعرف بالدور وبعض مناطق التبانة وعملوا في أعمال البناء وأعمال البلدية، فضلاً عن الأعمال الصعبة في المرفأ وسوق الخضار إلى جانب بؤساء ومعوزي الفئات والمذاهب الأخرى القادمين بمعظمهم من أقضية الشمال.

في الجانب الآخر من الحارة تقع بناية أهل د. خضر، القيادي العلوي في البعث العراقي (سيذهب إلى المقلب الآخر بعد تعزيز السيطرة السورية على طرابلس وبعدما ذهب رفاقه في القيادة إلى السجون أو المنافي أو المقابر وكان هذا حال بعض الفئات الأخرى، اليسارية الماركسية خصوصاً وبعض الفرق الإسلامية لاحقاً). ويقطن البناية دكتور آخر من آل خضر، ولكن أهله سنّة، قدموا من البيرة في عكار، وكان حالماً كغيره ممن يشبهونه بالمساهمة، التربوية والإدارية خصوصاً، من خلال حركات الاعتدال السنّي التحديثية التي ستظهر بعد الطائف وبعد تراجع وتفكك ومن ثم تشتت معظم الأحزاب اليسارية التي احتضنت هذه الفئات طويلاً، ويجاور الإثنان آل الزاهد «ونوبتهم» وليس بعيداً عنهم يسكن آل الزعموط (من الأكراد) والذين سيشتهرون بمتراس الزعموط في القبة في الجولات الأولى من الحرب الأهلية.

كما ينتشر على أطراف وامتدادات الحارة عائلات شيعية من أصول جبيلية وجنوبية كآل بزيع وآل علام وغيرهما، وقد أسهم هذا التنوع في زيجات مختلطة امتدت لاحقاً لتطال (وإن بشكل أقل) التزاوج المسيحي-المسلم، خصوصاً مع انتشار الأفكار اليسارية والعلمانية بقوة بعد 1968 وتحول باحة الجامع الكبير مركز انطلاق التظاهرات اليسارية ضد السلطة ودعماً للثوار من فلسطين إلى فيتنام مروراً بجبال ظفار وصولاً إلى سنتياغو .

تتصل الحارة بالقبة عبر مسربين:

1 - شعراني-حارة حدادشة (من حدشيت في بشري)- راهبات، وشعراني - ساحة الكنيسة- شارع الأرز، وشارع الجيش من جهة أخرى.

2 - كيال -جلاد- بقار، وكيال- أميركان- حارة لطيفة.

كما تتصل بالتبّانة عبر مسربين أساسيين:

1 - السيدة (شكلّت كنيسة السيدة مزاراً لمسيحيين وغيرهم من لبنان وسوريا، خصوصاً حين «يرشح» الزيت من جبين السيدة العذراء، لذا لا عجب أن تضم المدرسة الملحقة خليطاً متنوعاً من كل الطوائف)- سوق القمح.

2 - نزلة المورد الصافي- مزار العمري- شارع سوريا.

وترتبط الحارة بالأسواق وبقية المدينة عبر حارة البرانيّة وتتصل بالتل والراهبات والجامع المنصوري عبر شارع الكنائس.

حين اشترى أبو عزت البناية التي ستصبح أثراً بعد عين، والتي لم يسكنها من العائلات السنية سوى مالكها، لم يكن التمييز واضحاً أو لنقل ضرورياً بل كان جزءاً من التنوع الذي شكل نسيج المنطقة، حينها لم يكن بعل محسن سوى تلة من أشجار الزيتون يملكها شخص من عائلة محسن السنية الطرابلسية، كان على التلة دير سيصبح مدرسة الدير وكان هناك مستشفى، وعلى الجانب الآخر من القبة تقع مدرسة الاميركان للصبيان والتي ارتادها ابناء الطبقة الوسطى العلوية كآل حبوس وآل عيد بالإضافة للمذاهب والطوائف الأخرى، قبل أن تفرغ في الحرب وتصبح مركزاً لتنظيم يساري (م.ع.ش) ومن ثم مركز «مخابرات الأميركان» السوري (الذائع الصيت) بعد هروب قيادة التنظيم .

كانت العائلات العلوية، على تنوعها الطبقي والفئوي، منتشرة في حارات القبة والتبانة وأماكن اخرى، تبعاً لواقعها الإجتماعي، وكان لبعضها نفوذ تجاري وغيره، كآل حبوس الذين أسسوا دور السينما في التبانة، وآل حبيب الذين احتكروا مهنة تعليم السواقة لزمن طويل، وآل الشتوي. أما بعض العائلات فقد احتكرتها الأحزاب الشيوعية كآل المرجان وآل عبود وآل علي خليل (الآباء في الحزب والأبناء في م.ع.ش).

انعكس التنوع في القبة وأطرافها انتشاراً لكثير من المدارس الخاصة الكبيرة وبعض المدارس الرسمية المميزة كمدرسة الأمير بشير التي يكاد يكون تنوعها، أساتذة وطلاباً، يرسم لوحة مصغرة لتنوع المحيط، وكان مدير المدرسة المسيحي كرامي الهوى بينما انتشر الأساتذة وهم من كل المذاهب في مختلف الأحزاب المعروفة، وكانت القابلة القانونية السيدة سلام، زوجة حضرة المدير منهمكة في سحب الرؤوس من أرحام النساء (المحظوظات نسبياً!) غير عابئة بانتماءاتهم المذهبية والسياسية وهي على كل حال لم تكن متطابقة تماماً كما هي الآن .

ومع ازدياد الهجرة من الريف الشمالي من جهة والريف السوري من جهة أخرى كانت الأبنية تنبت في بعل محسن وجوارها وإن لم تكن ذات منحى مذهبي صافٍ في البداية، فلم يتشكل غيتو آنذاك رغم وجود بعض عناصره. فالغيتو البائس شبه الوحيد كان مخيم البداوي والذي ساهمت ممارسات أجهزة السلطة وكمّ من العنصرية اللبنانية في ازدياد بؤسه وبالتالي تحوله لقنبلة موقوتة ستنفجر بالطبع لاحقاً مع انفجار الثورة الفلسطينية وستفجر معها كثير من القنابل الموقوتة الأخرى.

شكّل شارع سوريا وسوقي الخضار والقمح، فضلاً عن ورش التريكو والأحذية والمفروشات والبلدية ومصانع البحصاص والمرفأ متنفسات ونقاط جذب للفئات المحتاجة، خصوصاً من التبانة وبعل محسن المتشكل حديثاً وبعض مناطق القبة ومهاجري الريفين، مما عزز حركة البناء الشعبي في التبانة وبعل محسن في آن.

كما شكّلت هذه الأمكنة تربة خصبة للأحزاب والحركات اليسارية والشعبية، الشيوعية منها خصوصاً مع حصة أيضاً لحزب البعث. ومع أنّ الحساسية المذهبية

والشعور بالحرمان ساهما بتعزيز الإنتماءات، إلاّ أنها ظلت في الغالب تحت سقف الأفكار اليسارية والقومية.

كان على هذه الحساسية أن تنتظر إشكالاً وقع بين طالبين من AUB أحدهما سعودي والثاني طرابلسي يدعى علي عيد، شكلت الحادثة ذريعة لتأسيس حركة الشباب العلوي، في سياق صعود آل الأسد إلى السلطة في سوريا و كان بدأ المارد الفلسطيني يخرج من القمقم في أعقاب هزيمة المارد الناصري في 1967.

ومع أحقية بعض المطالب التي رفعتها الحركة (ستصبح لاحقاً ح. ع. د)، إلا أنّها كانت بالإجمال فئوية، بعكس مطالب الحركة العلمانية اليسارية المتنامية في المنطقة والمتحالفة لاحقاً مع الحركة الفلسطينية باعتبارها عصب الصراع العربي-الصهيوني بعد هزيمة الأنظمة الرسمية. كما أنها بطابعها الفئوي واصطفافها مع سوريا (كان على هذا الإصطفاف أن ينتظر بعض التحولات داخل سوريا لجهة مزيد من التراجع القومي لصالح القطري والفئوي والتناغم مع السياسة الأميركية الكسينجرية)، استنفرت عصبيات أخرى مما سيؤدي لاحقاً، بعد بدء الحرب الأهلية وخصوصاْ بعد اصطدام الدخول السوري، المرعي أميركياً، بالحركتين الوطنية والفلسطينية، إلى «اجتياح» بعل محسن إلى أن عاد علي عيد ورفاقه على حصان السيطرة السورية على المدينة ويصبح البعل شبه غيتو بمقابل شبه غيتو آخر في التبانة، خصوصاً مع إنهيار الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية المتهالكة أصلاً والتي زادتها سنوات الوصاية تأزماً، كما أنّها ترافقت مع قسوة خاصة على طرابلس والتبانة، خصوصاً أنها أنتجت في إطار الصراع السوري-الفلسطيني حركة التوحيد التي أرخت على المدينة غمامة سوداء شكلت ذريعة للإنقضاض السوري عليها بواجهة حزبية، يسارية شكلاً، أدت فيما أدت لأحداث التبانة الأليمة في أعقاب اغتيال أبو عربي وهو ما جرى تحميله لمنطقة بعل محسن التي يعاني أهلها بؤساً وحرماناً موازياً لبؤس أهالي باب التبانة.

وما زاد الطين بلة أنّ المصالحة النسبية التي أعقبت الطائف وأنتجت قانون العفو ووزارة المهجرين لم تشمل التبانة وبعل محسن، مما أبقى النار تحت رماد الصراعات بما فيها الإقليمية منها. (تجدر الإشارة هنا أن حركة التوحيد المرعية فلسطينياً في البداية جرى الإستفادة منها سورياً لاحقاً في إطار الضغط على قيادات المدينة بما فيها الرئيس كرامي، لاستكمال السيطرة السياسية عليها).

في لقاء بين لجنة المتابعة للبناء الجامعي في الشمال والرئيس الشهيد رفيق الحريري في 2002، وفي خروج مألوف عن موضوع اللقاء، جرت دردشة حول ما سُمّي «مشروع الحريري» في القبة والذي أراده الشهيد نموذجياً، سُئل الرئيس الحريري عن سبب عدم امتداد المشروع لساحة الأميركان وبالتالي فتح الباب باتجاه المناطق المدمرة في التبانة وشارع سوريا، اكتفى «بابتسامة مرارة» غامزاً من قناة سلطة الوصاية، وقد قضى الرئيس الشهيد قبل أن يتحول جزء من مشروعه إلى خط نار جديد في أعقاب أحداث 7 أيار.

لم يكن أعضاء البرلمان المجتمعون في الطائف مهتمون كثيراً بما وصلت إليه حال تلة محسن وبَعْلي الدراويش والدقور، كان معظمهم قد وصل إلى الطائف

تحت وابل القصف الكلامي بعد أن «حلّ» الجنرال عون ما تبقى من برلمانهم بشحطة غضب تشبه شحطاته المعتادة. كانت السيطرة السورية الصرفة قد أطبقت على طرابلس التي ستصبح تقريباً شأناً سورياً، ولم يصدق أحد بالطبع أن نائباً علوياً (أوإثنين) ومديراً عاماً وسفيراً سيشيلون الزير من البير، وهو بير كان قد امتلأ بكثير من أقرباء الزير بعد أن اخترقت الحرب الأهلية المرعية جيداً كل المذاهب وباتت بعد مرحلة الفوضى المعروفة، عبثية بالنسبة للجميع تقريباً ومع ذلك فقد شكلت النيابة بطاقة اعتماد تصرف في نادي الطوائف المدار رسمياً بالعلاقة مع سلطة الوصاية.
(جريدة التمدن – العدد 1432- 16 نيسان 2014)